الارشمندريت جاورجيوس

غاية الحياة هي التأله

تعريب

الأب منيف حمصي

جبل آثوس

جاء في الكتاب الالهي أن الله خلق الانسان على صورته ومثاله (تك ١ :٢٦). هذا جعل التأله حجر الزاوية في الانثروبولوجيا المسيحية.

لهذا يقول داوود بالروح : «أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي كلكم» (مزمور ٨٢ :٦).

ويسوع له المجد، اقتبس هذا عن داوود من أجل سامعيه، فقال : «ألم يكتب في شريعتكم : قلت أنكم آلهة؟» (يوحنا ١٠ :٣٤-٣٦).

الارشمندريت جاورجيوس واضع الكتاب، ينسج على المنوال ذاته فيقول ببساطة أن غاية الحياة الأرضية هي أن نتأله. وهذا ممكن لنا، فقط، من خلال قوى الله غير المخلوقة، التي بدونها لا يمكننا أن نمتلك الحياة الالهية.

هذا يعني أن هدف حياتنا لا ينحصر في أن نأكل ونشرب ونتزوج وننجب. الانسان مخلوق عجيب أحبه الله كل الحب ودعاه إلى حياة لا تزول.

الأب منيف حمصي

غاية الحياة هي التأله

الارشمندريت جاورجيوس

تعريب

الأب منيف حمصي

جبل آثوس

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى

الاهداء

إلى الأم الفاضلة انطونينا والاخوات المجاهدات معها

الأب
منيف حمصي

الفهرس

- الاهـداء ٥
- المقـدمة ٩
- التأله غاية حياة الانسان ١١
- تجسّد الله حقق تأله الانسان ١٥
- مساهمة والدة الاله في تأله الانسان ١٩
- الكنيسة نطاق تأله الانسان ٢٢
- التأله ممكن من خلال قوى الله غير المخلوقة ٢٦
- مستلزمات التأله ٣٢
- خبرات التأله ٣٩
- اخفاق الكثيرين من الناس في بلوغ التأله ٤٥
- نتائج الارشاد الروحي على قاعدة التأله ٤٩
- نتائج الارشاد الروحي الذي لا يؤول إلى التأله ٥٢

مقدمة

ربما ليس بالأمر السهل تحديد هدف الحياة، اذ ان الحياة بالنسبة للناس ليست ذات هدف واحد يتفق عليه الجميع؛ فهذا يظن أن الحياة مجرد أكل وشرب. وذاك، انها تعب بقصد جمع الأموال وتكديسها. وثالث، يرى أن الحياة بالنسبة إليه أن يكون بخيلاً كي لا تهدر الحياة منه، وكي يمتلك كامل السيطرة على الحاضر والمستقبل. وآخر يرى أن هدف حياته أن يكون صاحب شهادات علمية يبرزها أمام الناس لأنه جاء من بيت كبير عريق في شؤون العلم والمعرفة. وغير ذلك.

الا أن فئة من الناس، وتبدو لي قليلة في العدد، ترى أن هدف الحياة هو في معرفة يسوع المسيح، والجلوس عند قدميه، والتأمل في البهاء والاشراق والمجد والغنى والجمال والحكمة والمعرفة التي تفيض منه بغزارة على محبيها وطالبيها.

إذا هدف الحياة ليس واحداً، وسيبقى الكلام عليه كثيراً والجدل حوله دائماً بين الناس، ليس في حاضرنا فقط، بل في المستقبل أيضاً كما كان الحال في الماضي.

بيد أن معرفة هدف الحياة مسألة هامة، لأن هذه المعرفة تساعدنا على تحديد مسعانا وتفسير سلوكنا وبواعث كدّنا وتعبنا وجهدنا. فضلاً عن ذلك فإن الحياة القائمة الغنية بالجمالات والاغراءات والصراعات والتجارب، هي ذات نهاية، أي أن الموت في النهاية هو الذي يضع حداً لضجيجها، وبالتالي يبتلع كل أحلام البشر فيها ومنجزاتهم مهما كانت صغيرة أو عظيمة. حياة الانسان وتعبه تكاد أن تكون لا شيء أمام النهاية المحتومة التي هي مصير جميع البشر.

وفي المسيحية، نحن نقر بحياتين، بعالمين، بمصيرين، بواقعين. نحن نؤمن أن هناك حياة أرضية، ترابية مكرمة من المنظار اللاهوتي، لأنها الاطار الذي نعيش فيه كي نستعد للدهر الآتي. الحياة الحاضرة تحضير للآتية. في هذه، نشتري بطاقة العبور إلى تلك. وبدون الآتية، لا يكون للحاضرة أي معنى. الحياة الحاضرة هي اطار المذاقة المسبقة للدهر الآتي. نحن نعيش ههنا بوحي قيم تلك، واستلهامًا لجمالات تلك. الحياة الحاضرة ليست مرمية في الفراغ، هي بالنسبة إلينا قائمة على معطيات تلك، وقيم تلك.

وصاحب هذا الكتاب أدرك بالعمق المطلوب أن الحياة الحاضرة غنية بالقيم الروحية. فالكتاب المقدس يقول: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب...». العالم الحاضر ليس عبثيًا في حد ذاته. انه الطريق إلى تلك. لذا فإن الراهب جورج، واضع هذا الكتاب، يعلّمنا من خبرته الشخصيّة وخبرة القديسين الذين يستلهمهم أن الحياة مع الله هي الهدف الأخير من وجودنا على الأرض. وأن تأله الانسان، هو الدعوة والرسالة المطلوب عيشها وتحقيقها من الناس. ويرى صاحب الكتاب أن الاطار الامثل لعيش مشيئة الله هي الكنيسة التي هي عامود الحق وركنه.

ويستشف من يطالع الكتاب أن واضعه يفهم مشاكل العصر جيدًا، فهو يصور ببساطة وايجاز مشاكل الناس، ويحاول بما أوتي من محبة أن يوجه الابصار إلى العتق والحرية.

أخيرًا، هذا الكتاب صغير في حجمه لكنه كبير في قيمته. وصفحاته القليلة لم تحجب، ولا يمكن أن تحجب أنوار الغنى الذي فيه. انه عصارة حياة. أدعوك إلى مطالعته عزيزي القارئ بهدوء وتمعّن ففيه الكثير من الامور النافعة التي يمكنها أن تعود على طالبي الحق والحياة بالخير والبركات، والسلام.

الأب منيف حمصي

الفصل الاول:

التأله غاية حياة الانسان

يحتل السؤال المتعلّق بغاية حياتنا، حيّزًا كبيرًا جدًا من الاهتمام وذلك لأنه يتّصل بأهم قضايا الانسان، أعني بذلك هدف وجوده على الارض.

واذا اتخذ الانسان موقفًا صحيحًا (متعقّلاً) حيال هذه القضية، وأدرك وجهته الحقيقية في الحياة، عندها يمكنه أن يواجه القضايا الصغيرة واليومية، في حياته، على سبيل المثال، لا الحصر، المشاكل ذات الصلة بعلاقته مع الاخرين من أترابه وبني جنسه، تحصيله العلمي، مهنته، زواجه، الانجاب، وتربية الاولاد، وسواها. أما إذا توانى عن اتخاذ موقف حيال هذه القضية الجوهرية، فإنه سيخفق في حياته، لا محالة، لاسيما عندما يتصدّى للاهداف الآخرى. ولكن اي معنى يكون لكل أهداف الحياة، إذا كانت حياة الانسان نفسها تخلو من المعنى؟

من مطلع الاصحاح الاول من سفر التكوين، (أول أسفار العهد القديم)، ينكشف لنا هدف الحياة، وذلك عندما يقول الكاتب الملهم بأن الله خلق الانسان على صورته ومثاله. من هذا ندرك عظمة المحبة التي يكنّها الله، المثلث الاقانيم، للانسان. ببساطة، لا يريد اللهُ الانسانَ مخلوقًا مزوّدًا ببعض المواهب، والصفات، فضلاً عن تفوّقه على سائر الخلائق الاخرى، وحسب، انما يريده بالأحرى، وفوق كل هذه المواهب، إلهًا بالنعمة.

ويبدو الانسان في الظاهر، مجرد كائن بيولوجي، مثله مثل الخلائق الاخرى، العجماء. بالطبع، الانسان حيوان[1] أيضًا. بيد أن القديس غريغوريوس اللاهوتي يقول، وعلى نحو فريد في عظة له في عيد الظهور الالهي: «الانسان هو المخلوق الوحيد الذي ليس مخلوق على الارض مثله، فهو، دون سواه من الخلائق، يستطيع أن يكون الهًا»، (MPG 36, 324, 13).

وعبارة «على صورته»، تشير إلى المواهب التي حباه الله بها، وبها ميّزه عن الخلائق الاخرى. من هذا فإن الانسان مخلوق على صورة الله. ولكن ما هي المواهب التي اغدقها الله على الانسان؟

انها العقل، الضمير، الارادة الحرة، الابداع، العشق، التوق إلى المطلق (الذي هو الله)، فضلاً عن الوعي الذاتي الشخصي، وكل شيء آخر من شأنه ان يجعل الانسان بحق، فوق سائر الخلائق الحية، اعني بذلك ان الانسان فقط، بين جميع الخلائق، أعطي أن يكون شخصًا، وهذا بفضل المواهب الممنوحة له، وذلك لكونه يحمل صورة الله.

ولما كان الله قد منح الانسان الصورة الالهية، تاليًا، فقد سبق ان دعاه كي يبلغ مثال الصورة الالهية، ويقتنيه، فيبلغ به التأله. الخالق هو الله بالطبيعة، وقد سبق ان دعا الانسان كي يصير الهًا بالنعمة.

لقد منح الله الانسان المواهب التي على صورته، وذلك كي يرتقي، فيقتني، بواسطة الصورة، مثال الله خالقه الذي سبق أن دعاه لا إلى علاقة خارجية، اخلاقية معه، إنما إلى علاقة اتحاد شخصي مع الخالق.

(١) كلمة «حيوان» ليست تعبيرًا سلبيًا، لأن «الحيوان» رديف الحي. (المعرّب).

ولعله من الوقاحة أن نتجاسر على القول والتفكير أن هدف حياتنا هو أن نصير الهة بالنعمة، بيد أن الكتاب المقدس يؤكد ذلك، ولا يخفيه، والآباء القديسون لا ينكرونه.

ولكن مع كبير الاسف، فإن اناسًا كثيرين، من خارج الكنيسة، وآخرين من داخلها، جهال حقًا، وذلك لأنهم يعتقدون ان هدف حياتنا، هو في أفضل الاحوال، مجرد تحسين أخلاقي moral improvement، أو الصيرورة افضل.

غير أنه بحسب الانجيل، والتقليد الشريف، فضلاً عن كتابات الاباء القديسين، فإن تحسين الاخلاق، أو الصيرورة أفضل، ليست هدف حياتنا، فبداهةً أن يُصلح الانسان نفسه، وأن يكون اكثر خلقًا وتخلّقًا، اكثر عدلاً، اكثر عفة، أكثر عناية واهتمامًا. ومع ذلك، فكل هذه ليست الهدف الأهم، أو الاخير الذي من أجله خلقنا الله. ما هو الهدف إذًا؟

انه التألّه (theosis, deification)، أعني بذلك اتحاد الانسان بالله، لا ظاهريًا أو خارجيًا أو عاطفيًا، بل فعليًا.

الانثروبولوجيا الارثوذكسية ترفع الانسان عاليًا، بحيث اننا إذا قارنّا كل الانثروبولوجيات في المنظومات الفلسفية والاجتماعية والسيكولوجية، بالانثروبولوجيا الارثوذكسية، فإننا سندرك، دونما عناء، ضحالة هذه المنظومات المذكورة، وعدم استجابتها للتوق العظيم في الانسان، نحو أمر عظيم جدًا وحقيقي في حياته.

وما دام الانسان قد دُعي كي يكون على مثال الله، أعني بذلك أن الله خلقه كي يصير الهًا، فهو تاليًا، عندما لا يسير في طريق التأله، فإنه يشعر في قرارته، لا محالة، ان فيه ما لا يسير على ما يرام، ولن

يحظى بالسعادة الحقيقية حتى ولو حاول أن يملأ فراغه بنشاطات آخرى كثيرة. قد يخدّر نفسه، فيخلق عالمًا من نسج الخيال، غير أنه صغير ومحدود، وبدون عمق. وفي العالم الذي ينسجه الانسان لنفسه، كثيراً ما نجده يستعبد ذاته ويأسرها ، فهو لا ينظم حياته على نحو يمكّنه من العيش في العالم بسلام، ولا يجلس إلى نفسه، ولا يختلي بها، إنما يسعى بالضجيج والتوتر والتلفزيون والراديو، ومن خلال الاستعلام عن كل شيء، تقريبًا، أسوة بما يفعله البعض بالمخدرات، وذلك كي ينسى، ولا يفتكر أو يهتم أو يتذكر أنه في طريق الضلال، وأنه قد انحرف وضلّ السبيل في الحياة.

على كل، وفي نهاية المطاف، لا يقنع الانسان المعاصر واليائس، إلى أن يجد شيئًا آخر أعظم، في حياته، شيئًا جميلاً وخلاّقًا بحق.

ترى هل يستطيع الانسان أن يتّحد بالله؟ هل يستطيع أن يدخلَ في شركة حياة مع الله؟ وهل يستطيع أن يصبح الهًا بالنعمة؟

الفصل الثاني

تجسّد الله حقق تأله الانسان

يقول اباء الكنيسة القديسون بأن الله صار انسانًا ليصير الانسان الهًا. وعليه، ما كان بمقدور الانسان أن يبلغ إلى التأله، لولا تجسّد الله. لقد عاش في الازمنة التي سبقت مجيء المسيح، كثيرون من الابرار والحكماء. وعلى سبيل المثال، بلغ اليونانيون القدماء في فلسفتهم، شأوًا رفيعًا لجهة الله والفضيلة. وفي الحقيقة، تضمّنت فلسفتهم بعض عناصر من الحق، وهو ما يعرف بعبارة: «الكلمة المبذورة = «Spermaticos Logos». فضلاً عن ذلك، لم يكن اليونانيون القدامى من الملحدين على نحو ما يصوّرهم به بعض معاصرينا غير المتعلمين. فهم رغم انهم وثنيون (gentiles) لم يكونوا يعرفون الاله الحقيقي، إلا أنهم لم يكونوا ملحدين.

ويمكن استشفاف الشوق إلى الاله المجهول، والرغبة بالدخول في خبرة معه عند اليونانيين القدامى، رغم عدم امتلاكهم معرفة الله الكاملة والصحيحة، وذلك لأن الشركة مع الله كانت مفقودة، وتاليًا، كان التأله مستحيلاً.

وفي العهد القديم هناك من هم أهل بر وعدل وفضيلة، ومع ذلك فالاتحاد بالله، بكلام آخر، التأله، لم يكن ممكنًا بلوغه، أو الوصول إليه، الا بفعل تجسّد الله، كلمة الله (اللوغوس).

هذا هو الهدف من تجسّد الله. فلو أن هدف وجود الانسان وحياته هي أن يكون أفضل من الوجهة الاخلاقية، عندها لا يعود من ضرورة لمجيء المسيح إلى العالم، ولا يعود من لزوم لإثارة مسألة التدبير الالهي الذي حققّه تجسّد الله، والصليب، والموت، وقيامة الرب، وكل ما نؤمن نحن المسيحيين أن يسوع المسيح قد أتمّه، فقد كان بامكان الجنس البشري ان يتعلّم اصلاح السيرة، أخلاقيًا، بالانبياء والفلاسفة والمعلمين وأهل البر، وكفى.

نحن نؤمن ان آدم وحواء انقادا إلى الشر، ورغبا في أن يكونا الهين، ليس بالتعاضد مع الله (synergy)، ليس بتواضع وطاعة ومحبة، بل بالاتكال على قواهما الذاتية ومشيئتها الخاصة، وعلى نحو أناني، ومن تلقاء نفسيهما. بتعبير آخر، ان جوهر السقوط هو الانانية. فلما اعتمد آدم وحواء عشق الذات self-love، وعدم الرضى، انفصلا عن الله، وبدل أن يصلا إلى التأله، حظيا بنقيضه، أعني به الموت الروحي.

ويقول اباء الكنيسة القديسون إن الله حياة، تاليًا، فإن من يبتعد عن الله، يبتعد عن الحياة أيضًا. من هنا كان الموت الروحي، ومن ثم الموت الجسدي ، ثمرة عصيان آدم وحواء.

ونحن ادركنا نتائج السقوط، فالانفصال عن الله، أودى بالانسان إلى سيرة شهوانية وحيوانية وشيطانية بآن. لقد دبّ السقم في خليقة الله العظيمة، واستفحل الداء حتى الموت، وتشوّهت، تاليًا، صورة الله.

بعد السقوط، لم يعد الانسان يمتلك مستلزمات الارتقاء نحو الله كما كانت حالته قبل الخطيئة. وفي هذا المرض الرهيب الذي قاد الانسان إلى الموت، لم يعد هذا الاخير قادرًا ان يتوجّه نحو الله،

فصارت الانسانية بحاجة إلى جذر root جديد، إلى انسان جديد صحيح ومعافى بمقدوره أن يوجّه حرية الانسان نحو الله. وهذا الجذر، او الانسان الجديد هو الله - الانسان يسوع المسيح[1]، الابن، وكلمة الاب الذي تجسّد ليشكّل الجذر الجديد، البداية الجديدة، وخميرة الانسانية الجديدة.

ويقول القديس يوحنا الدمشقي إن تجسّد المسيح حقّق اتحادًا ثانيًا بين الله والانسان، فالاول كان في الفردوس، بيد أنه انكسر بسبب السقوط، وبنتيجته، انفصل الانسان عن الله. غير أن الهنا المحب، أقام لنا، الآن، اتحادًا آخر، ثانيًا بين الله والانسان، لا ينكسر بعد اليوم، وذلك لأن هذا الاتحاد حقّقه يسوع المسيح في شخصه.

والمسيح، الله - الانسان، الابن، وكلمة الله الآب (١ يوحنا)، عنده طبيعتان كاملتان: الالهية والانسانية. وهاتان الطبيعتان الكاملتان، متحدتان خلوًا من تغيير أو امتزاج أو انقسام أو انفصال، في أقنوم الله الابن، أقنوم المسيح، وذلك بحسب ما ورد في تحديد المجمع المسكوني الرابع المقدس في خلقيدونية، والذي يؤلف بقيادة الروح القدس، الدرع اللاهوتي الحصين في الكنيسة الارثوذكسية بإزاء كل أشكال الهرطقات الخريستولوجية في كل الازمان. نحن عندنا مسيح واحد في طبيعتين: الهية وانسانية.

وعليه الآن، فإن الطبيعة الانسانية، وبفضل الاتحاد الاقنومي للطبيعتين (الالهية والانسانية) في شخص المسيح، المتّحد على نحو يتعذر تغييره في الاقنوم الالهي، فالمسيح هو الله - الانسان على نحو

---

(١) Theanthropos

أبدي، وهو نفسه صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب - وسوف ياتي ليدين العالم في مجيئه الثاني.

لهذا، فإن الطبيعة الانسانية تتربّع الآن في حضن الثالوث الاقدس، ولا شيء يمكنه أن يفصل هذه الطبيعة الانسانية عن اللاهوت. من هنا، فنحن الآن، وبعد تجسّد الرب، نخطئ كبشر، بمقدار بعدنا عن الله. ولكن يمكننا، إذا أردنا، وبالتوبة، أن نعود لنتحد بالله من جديد. ونستطيع أن نتّحد بالله، فنصبح الهة بالنعمة.

الفصل الثالث

مساهمة والدة الاله في تألّه الانسان

يسوع المسيح الرب، يعطينا امكانية الاتحاد بالله، والعودة إلى الهدف الاول (القديم) الذي جعله الله للانسان. لهذا السبب، يعلن الكتاب المقدس ان يسوع هو الطريق، الباب، الراعي الصالح، الحياة، القيامة، والنور. انه آدم الجديد الذي أصلح ما أفسده آدم الاول. لقد انفصل آدم الاول عن الله، بعصيانه وأنانيته، اما آدم الثاني فيستردّنا لله بمحبته وطاعته للآب، طاعته حتى الموت، موت الصليب. انه يوجّه ارادتنا الحرة نحو الله، وهكذا نتمكّن من الاتحاد به عبر تقديم حريتنا له.

على كل حال، فإن عمل آدم الجديد، يتطلّب أولاً عمل حواء الجديدة (الكلية القداسة) التي أصلحت ما أفسدته حواء الاولى التي اغوت آدم فقادته إلى الموت. وحواء الجديدة أسهمت في تجسّد آدم الجديد الذي سيقود النسل البشري إلى طاعة الله. لهذا السبب فإن سيدتنا والدة الاله (أم الله)، ولكونها المخلوق الاول الذي حقّق التألّه على نحو استثنائي وفريد، لعبت دوراً، ليس فقط أساسيًا، بل جوهريًا ولا يُستبدل، في خلاصنا.

ويرى القديس نيقولاوس كاباسيلاس اللاهوتي الكبير الذي عاش في القرن الرابع عشر، انه في حال عدم تقديم الكلية القداسة مشيئتها الذاتية لله، وطاعتها أيضًا، أي في حال انها لم تجب بـ «نعم»، لله، لما كان بالامكان ان يتحقق تجسّد الله، فالله عندئذ سيكون قد انتهك

أبدي، وهو نفسه صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب - وسوف ياتي ليدين العالم في مجيئه الثاني.

لهذا، فإن الطبيعة الانسانية تتربّع الآن في حضن الثالوث الاقدس، ولا شيء يمكنه أن يفصل هذه الطبيعة الانسانية عن اللاهوت. من هنا، فنحن الآن، وبعد تجسّد الرب، نخطئ كبشر، بمقدار بعدنا عن الله. ولكن يمكننا، إذا أردنا، وبالتوبة، أن نعود لنتحد بالله من جديد. ونستطيع أن نتّحد بالله، فنصبح الهة بالنعمة.

الفصل الثالث

مساهمة والدة الاله في تألّه الانسان

يسوع المسيح الرب، يعطينا امكانية الاتحاد بالله، والعودة إلى الهدف الاول (القديم) الذي جعله الله للانسان. لهذا السبب، يعلن الكتاب المقدس ان يسوع هو الطريق، الباب، الراعي الصالح، الحياة، القيامة، والنور. انه آدم الجديد الذي أصلح ما أفسده آدم الاول. لقد انفصل آدم الاول عن الله، بعصيانه وأنانيته، اما آدم الثاني فيستردّنا لله بمحبته وطاعته للآب، طاعته حتى الموت، موت الصليب. انه يوجّه ارادتنا الحرة نحو الله، وهكذا نتمكّن من الاتحاد به عبر تقديم حريتنا له.

على كل حال، فإن عمل آدم الجديد، يتطلّب أولاً عمل حواء الجديدة (الكلية القداسة) التي أصلحت ما أفسدته حواء الاولى التي اغوت آدم فقادته إلى الموت. وحواء الجديدة أسهمت في تجسّد آدم الجديد الذي سيقود النسل البشري إلى طاعة الله. لهذا السبب فإن سيدتنا والدة الاله (أم الله)، ولكونها المخلوق الاول الذي حقّق التألّه على نحو استثنائي وفريد، لعبت دوراً، ليس فقط أساسيًا، بل جوهريًا ولا يُستبدل، في خلاصنا.

ويرى القديس نيقولاوس كاباسيلاس اللاهوتي الكبير الذي عاش في القرن الرابع عشر، انه في حال عدم تقديم الكلية القداسة مشيئتها الذاتية لله، وطاعتها أيضًا، أي في حال انها لم تجب بـ «نعم»، لله، لما كان بالامكان ان يتحقق تجسّد الله، فالله عندئذ سيكون قد انتهك

الحرية التي منحها للانسان. لا يمكن لله أن يتجسّد بدون نفس نقية، وكلية القداسة، وبريئة من العيب كالتي لمريم والدة الاله. لقد قدّمت مريم حريتها لله، بالكلية، مع ارادتها وكل ذاتها، وذلك كي تحضر الله إلى نفسها، وإلينا بآن.

نحن مديونون لوالدة الاله بالكلية. لهذا تغبّطها الكنيسة وتكرّمها كل الاكرام. ويخلص القديس غريغوريوس بالاماس اللاهوتي الابائي، فيقول بأن مريم تحتل المكانة الثانية بعد الثالوث الاقدس، وأنها الهة تأتي بعد الله مباشرة، وإنها الحد الفاصل بين المخلوق وغير المخلوق، انها الاولى بين المخلّصين بحسب تعبير آخر جميل لأحد اللاهوتيين في كنيستنا. والقديس نيقوديم الآثوسي هذا المعلم النوراني في الكنيسة، يذكر أن المراتب الملائكية نفسها تستنير بالنور المنبعث من الكلية القداسة.

وهكذا، فالكنيسة تمتدح مريم فتقول: «... الارفع مجداً بغير قياس من السارافيم».

ان تجسّد الكلمة وتألّه الانسان، هما السر العظيم في إيماننا ولاهوتنا. هذا ما تعيش به كنيستنا الارثوذكسية، كل يوم، من خلال الاسرار والتسابيح، والايقونات، بكل شموليتها. وهندسة الكنيسة تثبت ذلك. كذلك فإن قبة الكنيسة حيث يُصوّر الضابط الكل، ترمز إلى نزول السماء على الارض، فالله صار انسانًا وسكن بيننا كما يقول الانجيلي يوحنا (يو ١: ١٤).

وطالما أن الله صار انسانًا، باتخاذه جسداً من والدة الاله، وذلك كي يُظهر أنه جاء إلى الارض، ومن خلال العذراء، إلى كل الناس، لذا فنحن نصوّر والدة الاله في انحناءة الهيكل. والدة الله هي الجسر

الذي استخدمه الله للنزول، الجسر الذي يقود الذين في الارض إلى السماء، والمكان الذي يحوي الله غير المحدود، من أجل خلاصنا. مريم هي الارحب من السموات.

فضلاً عن ذلك، فالكنيسة ترسم أناسًا متألهين: إنهم أولئك الذين أصبحوا الهة بالنعمة، وذلك لأن الله صار انسانًا. إذًا، نستطيع في كنيستنا أن نرسم ما هو حول وتحت القدير، وليس فقط الله المتجسّد، المسيح، وامه البريئة من العيب والدة الاله، بل القديسين أيضًا. على جدران الكنائس، نستطيع أن نرسم ثمار التجسّد الالهي، أعني بذلك الرجال والنساء المقدَّسين والمتألهين.

وهكذا، فإننا لدى دخولنا إلى كنيسة أرثوذكسية، ولدى رؤية الايقونات الجميلة، نتلقى توًا خبرة ندرك معها عمل الله بالنيابة عن الانسان، ونعاين غاية حياتنا. كل ما في الكنيسة يؤكّد تجسّد الله، وتألّه الانسان.

الفصل الرابع

الكنيسة نطاق تألّه الانسان

الذين يودّون الاتحاد بالمسيح، بالله الآب في المسيح، يدركون أن هذا الاتحاد يقوم في جسد المسيح الذي هو كنيستنا الارثوذكسية المقدسة. وهذا الاتحاد ليس بالطبع مع الجوهر الالهي، إنما مع طبيعة المسيح الانسانية المتألهة. على كل حال، ليس هذا الاتحاد بالمسيح خارجيًا ولا هو ببساطة اتحاد اخلاقي.

نحن لسنا اتباع المسيح كما هو حال اتباع فيلسوف أو معلم. نحن اعضاء جسد المسيح، أعضاء جسد الكنيسة. فالكنيسة هي جسد المسيح الحقيقي لا الاخلاقي كما زعم بعض اللاهوتيين الذين تلهوتوا على نحو خاطئ دون أن يتأملوا بعمق في روح الكنيسة المقدسة. المسيح يأخذنا كمسيحيين رغم خطيئتنا وعدم استحقاقنا، ومن ثم يجعلنا في جسده، انه يجعلنا أعضاء نفسه، فنصبح حقًا، لا أخلاقيًا، أعضاء جسده. يقول الرسول بولس: «نحن أعضاء جسده، من لحمه ومن عظامه» (افسس ٥ : ٣٠)

بالطبع هذا يعتمد على الحالة الروحية عند المسيحيين الذين هم أحيانًا أعضاء حية في جسد المسيح، وأحيانًا أخرى يكونون أعضاء ميتة. وحتى لو كانوا أمواتًا، فهم يبقون أعضاء جسد المسيح. على سبيل المثال، الذي يعتمد، يصبح عضوًا في جسد المسيح، فإذا كان لا يعترف، فإنه لا يتناول، وإذا كان لا يعيش روحيًا، فإنه يكون عضوًا ميتًا في جسد المسيح.

أما عندما يتوب، فإنه يمتلئ توًا بالحياة الالهية ويصبح عضوًا حيًا في جسد المسيح ولا يكون بحاجة إلى معمودية ثانية. أما غير المعتمد، فليس عضوًا في جسد المسيح حتى ولو عاش سيرة اخلاقية مشكورة. لا بد أن يعتمد، كي يصبح عضوًا في جسد المسيح، وكي يتحّد بجسد المسيح.

أما إذا كنا أعضاء جسد المسيح، فإن حياة المسيح تعطى لنا، لابلّ تصبح حياتنا. وهكذا نحيا ونخلص ونتأله. وكل هذا يكون ضربًا من المستحيل، لو أن الله لم يجعلنا أعضاء جسده القدوس.

وبالنسبة للآباء القديسين. فخلاصنا يكون ضربًا من المستحيل لولا اسرار الكنيسة المقدسة التي من شأنها أن تتحدنا بالمسيح فتجعلنا جزءًا من جسده نفسه، ودمه نفسه.

يا لها من بركة مقدسة ان نكون شركاء الاسرار المقدسة. المسيح يصبح لنا، حياته حياتنا، ودمه دمنا. ويلاحظ القديس يوحنا الذهبي الفم ان الله ليس عنده ما يعطي الانسان أكثر مما يقدمه في المناولة المقدسة. كما ولا يستطيع الانسان أن يطلب من الله اكثر مما يتلقاه من المسيح في المناولة المقدسة.

وهكذا، فنحن عندما نعتمد. ونتميرن، ونعترف، نصبح شركاء[1] جسد الرب ودمه، ونصير الهة بالنعمة، فنتّحد بالله، ولا نكون غرباء بعد انما نصبح قريبين جدًا منه.

---

(١) الكاتب حسب سياق الكتاب لا يريد أن يقول أن الاتحاد بالمسيح يتم بدون تناول جسده ودمه. هذا علمًا أن المعمودية الارثوذكسية تشتمل على ثلاثة أسرار: المعمودية، الميرون، والمناولة. (المعرب)

وفي الكنيسة، حيث نتّحد بالله، نختبر هذه الحقيقة الجديدة، وهي أن المسيح جاء بالخليقة الجديدة إلى العالم. هذه هي حياة الكنيسة، وحياة المسيح، انها حياة تكون لنا هبةً من الروح القدس.

في الكنيسة كل شيء يقود إلى التأله، من الليتورجيا المقدسة، إلى الاسرار، فالعبادة الالهية، والكرازة بالانجيل، الصوم، وكل شيء. الكنيسة هي المكان الوحيد للتأله.

والكنيسة ليست مؤسسة تاريخية أو حضارية أو اجتماعية بحيث تكون على شبه المؤسسات الاخرى في العالم. انها ليست كسائر المؤسسات المختلفة في العالم. فالمؤسسات والمنظمات وامور اخرى جميلة، يمكن ان تقوم في العالم، غير أن كنيستنا الارثوذكسية هي الفريدة، المكان الوحيد لشركة الله مع الانسان، المكان الوحيد لتألّه الانسان. في الكنيسة فقط، يستطيع الانسان أن يصبح الهًا. ليس هناك مكان آخر، لا في الجامعات ولا في الخدمات الاجتماعية، ولا في أي أمر آخر جميل أو صالح يقدّمه العالم، فكل الخير الذي يمكن للعالم أن يقدّمه، لا يمكنه أن يوازي تقدمة الكنيسة.

لهذا السبب فإن المؤسسات العالمية والانظمة أو المنظمات، لا يمكنها أن تكون بديلاً عن الكنيسة، مهما كان التقدم الذي تحرزه.

ومن الممكن بالنسبة الينا نحن الخطأة الضعفاء أن نجتاز في الكنيسة صعابًا وأزمات، بين الحين والآخر. ومن الممكن ان يكون هناك فضائح في قلب الكنيسة. وهذه تحدث لأننا في الكنيسة، في مسيرة إلى التأله، ومن الطبيعي ان تظهر الضعفات الانسانية. نحن لسنا الهة، لكننا نصير الهة. ومهما حدث في الكنيسة من هذا القبيل، فنحن لا نترك الكنيسة. لأن لنا فيها الامكانية الوحيدة للاتحاد بالمسيح.

وعلى سبيل المثال، عندما نذهب إلى الكنيسة للمشاركة في القداس الالهي، وهناك نصادف أناسًا لا ينتبهون لما يجري في القداس الالهي، انما يتحدثون مسببين تشتتًا، عندها فإن فكرة متعقلّة تراود عقولنا، وهي: ما الذي أجنيه حقًا من المجيء إلى الكنيسة؟ ألم يكن من الافضل لو أني بقيت في البيت حيث أكون في سلام أكثروراحة اكثر من أجل الصلاة؟ علينا، على كل حال أن نقارب هذه الفكرة الشريرة بحذر، وعلى النحو التالي: «قد يكون عندي سلام خارجي أكثر، في البيت، ولكن لن تكون عندي نعمة الله تؤلهني وتقدّسني. سوف لن يكون عندي المسيح الحاضر في الكنيسة، كما ولن يكون عندي جسده القدوس، ودمه الكريم الممنوحان لي في الكنيسة المقدسة، ومن على المائدة المقدسة بالذات. كما وأني لن اشارك في العشاء السري الذي يقام في القداس الالهي. سوف لن يخدمني اخوتي في المسيح، الذين وإياي معًا، نؤلف جسد المسيح.

وبالتالي، فمهما يحدث، لن نبارح الكنيسة، لأننا فيها فقط، نجد الطريق إلى التأله.

الفصل الخامس

التأله ممكن من خلال قوى الله غير المخلوقة

بحسب تعليم الكتاب المقدس، وآباء الكنيسة القديسين، يستطيع الانسان في الكنيسة الارثوذكسية ان يبلغ التأله، لأن نعمة الله غير مخلوقة. الله ليس جوهرًا وحسب، كما تعلّم الكنيسة الغربية، إنه قوى ايضًا. فلو كان اللهجوهرًا فقط، فإن شركتنا معه، واتحادنا به، لا تعود ممكنة وذلك لأن جوهر الله رهيب، ولا يمكن للانسان ان يدنو منه: «أنت لا تستطيع أن ترى وجهي، لأنه لا احد يراني ويحيا» (خروج ٣٣: ٢٠).

دعونا الآن نذكر مثلاً بهذا الصدد يستند إلى الخبرة الانسانية. اذا لمسنا سلكًا كهربائيًا عاريًا، فإننا نموت توًا. أما اذا ربطنا السلك بمصباح، فإننا نستضيء. نحن نرى، ونستمتع ونستعين بالطاقة الكهربائية، ومع ذلك، لا نستطيع ان نلمس جوهر الكهرباء. لنقل ان أمرًا مماثلاً ينطبق على قوى الله غير المخلوقة.

واذا افترضنا أننا نستطيع أن نتّحد بجوهر الله، فهذا يعني أننا سنصبح الهة بالجوهر، أي أن كل شيء سيكون مثل الله، وسيكون هناك غموض، وهكذا لا يكون شيء مثل الله في جوهره. هذا باختصار ما يؤمن به الناس في الاديان الشرقية. مثلاً، الله في الهندوسية، ليس وجودًا شخصيًا، انما هو قوة غاشمة غير محددة تخترق العالم كله في الناس، في الحيوانات، وفي الاشياء (الحلولية).

ومن الناحية الثانية، اذا كان الله جوهرًا الهيًا وحسب، بدون قواه، فإنه سيبقى الهًا مكتفيًا بذاته (منغلقًا على ذاته)، منعزلاً عن خلائقه، وغير مدنو منه.

بالنسبة للمنظار اللاهوتي الارثوذكسي، الله واحد في ثالوث، وثالوث في واحد. ويقول القديسون مكسيموس المعترف، وديونيسيوس الاريوباغي، واباء آخرون، وعلى نحو مميز، بأن الله مغمور بالحب والعشق الالهين لكل خلائقه. ومن خلال هذا الحب غير المحدود، وهذا الوجد الالهي، يخرج الله من ذاته طالبًا على الدوام الاتحاد بخلائقه. وهذا يتحقق بواسطة القوى الالهية، وعلى نحو أفضل، بواسطة قوى الله.

الله، أبدع العالم، وما يزال يخلقه حتى الآن، بقواه غير المخلوقة. وهو يعطي عالمنا جوهرًا واقنومًا من خلال قواه غير المخلوقة. انه حاضر في الطبيعة على الدوام ويحمي الكون بفضل قواه الحافظة، وينير الانسان بفضل قواه المنيرة، ويقدّسه بفضل قواه المقدِّسة. واخيرًا، فإنه يؤلهه، بقواه المؤلّهة. لهذا فإن الله القدوس يدخل الطبيعة، العالم التاريخ، وحياة البشر، بفعل قواه غير المخلوقة.

وقوى الله قوى الهية، انها الله نفسه، دون أن تكون جوهر الله. هذه القوى هي الله، لهذا فهي تؤلّه الانسان. فلو أن قوى الله لم تكن الهية، وغير مخلوقة، عندها يكون من المستحيل أن يقال انها الله نفسه، وانها قادرة ان تؤلهنا، وان تتحدنا به، وسيكون هناك هوة لا يمكن الوصل بين طرفيها، أي بين الله والانسان. وطالما ان في الله قوى الهية، من خلالها يتّحد الله بنا، نستطيع عندها أن نتّحد به، وبنعمته، دون أن نتماهى معه، ودون أن نتّحد بجوهره.

اذًا، نحن نتّحد بالله من خلال قواه الالهية غير المخلوقة، لا من خلال جوهره. هذا هو سر ايماننا وحياتنا الارثوذكسيين.

والغربيون لا يستطيعون ان يقبلوا هذا، فهم عقلانيون لا يميزّون بين جوهر الله وقواه. انهم يعلنون أن الله جوهر فقط، لذلك يعجزون عن الكلام عن تأله الانسان. ترى كيف يستطيع الانسان ان يتأله بالنسبة اليهم طالما أنهم لا يؤمنون أن القوى الالهية غير مخلوقة؟ علاوة على ذلك، كيف يستطيع ما هو مخلوق، أي ما هو مفصول عن الله، أن يؤلّه الانسان المخلوق؟

الغربيون يمتنعون عن الكلام عن التأله، وذلك كي يتفادوا الوقوع في الحلولية. اذًا، ماذا يكون بعدئذ، وبالنسبة اليهم، هدف حياة الانسان؟ انه ببساطة تحسّن اخلاقي. وطالما أن الانسان لا يستطيع أن يتألّه بالنعمة الالهية، وبالقوى الالهية، اذًا، ما هو هدف حياته؟ انه ببساطة أن يتحسن أخلاقيًا ويستمر.

غير أن الكمال الاخلاقي ليس كل شيء بالنسبة للانسان. فنحن لا نكتفي ان نصبح ببساطة أفضل مما كنا عليه، لا نكتفي أن نعمل أعمالاً أخلاقية. هدفنا المطلق هو أن نتّحد بالله القدوس. هذا هو الهدف من خلق الكون. هذا هو الهدف المنشود. هذا هو فرحنا وسعادتنا وانجازنا.

ان نفس الانسان المخلوق على صورة الله ومثاله، تتوق إلى الله، وتحنّ إلى الاتحاد به، ولا يهم كم يكون الانسان خلوقًا وصالحًا، لا يهم كم عنده من أعمال فاضلة، فهو اذا لم يجد الله، ولم يتّحد به، لن يجد الراحة، لأن الله القدوس نفسه، هو الذي غرس فيه هذا العطش المقدس، وهذا الشوق الالهي، وهذا الحنين، للاتحاد به، من

أجل التأله. في الانسان هناك الطاقة العشقية التي يتلقّاها من خالقه، وذلك كي يحب حقًا، وبقوة، وعلى نحو لا أنانية فيه، تمامًا كما يفعل خالقه القدوس الذي أحب عالمه، وخلائقه. عند الانسان القوة أن يحب الله من خلال الفعل العشقي erotic act، ومن خلال القدرة العاطفية. فلو لم تكن صورة الله في الانسان، فإن سعيه إلى مثاله سيكون محالاً. كل واحد منا هو صورة الله، والله هو المثال. والصورة تسعى إلى المثال، وفقط عندما تجد الصورة مثالها ترتاح فيه.

في القرن الرابع عشر، حرّض راهب غربي يدعى برلعام (من كلابريا) على ثورة عظيمة في الكنيسة، فقد سبق له ان سمع من الرهبان الاثوسيين كلامًا عن التأله. وأبلغ هو نفسه انه بعد جهاد عظيم، وتنقية من الاهواء، والكثير من الصلاة، استأهل هؤلاء الرهبان ان يتحّدوا بالله، فصار عندهم خبرة الهية لبلوغ معاينة الله. وسمع انهم اختبروا النور غير المخلوق الذي عاينه الرسل الاطهار في تجلي المخلص على طور ثابور.

غير أن برلعام، بعقله الهرطوقي والعقلاني، كان عاجزًا عن ادراك اصالة هذه الخبرات الرهبانية الالهية المتواضعة، فما كان منه الا ان اتهم الاثوسيين بأنهم ضالون، هراطقة ووثنيون. ولما كان لا يعرف شيئًا عن التمييز بين جوهر الله وقواه غير المخلوقة، فقد زعم انه تستحيل رؤية النعمة الالهية.

بيد أن نعمة الله كشفت معلمًا مستنيراً عظيمًا في الكنيسة، أعني به القديس غريغوريوس بالاماس الاثوسي، رئيس، اساقفة سالونيك. هذا كرز بحكمة عظيمة ونور الهي مشفوعًا بخبرة شخصية، فكتب الكثير وعلّم الكثير بحسب ما هو في الاسفار المقدسة وتقليد الكنيسة

الشريف من أن نور النعمة الالهية غير مخلوق، وانه قوة الهية. وأكد أن الرجال المتألهين، يرون بحق هذا النور الذي هو الاكثر سموا ، والخبرة الاكثر دقة في مسألة التأله، وهم أنفسهم - أي هؤلاء الرجال - في هذه الخبرة يُعايَنون. هذا هو مجد الله وبهاؤه، نور ثابور، نور قيامة المسيح والعنصرة والسحابة المنيرة الوارد ذكرها في العهد القديم. انه حقًا نور الله غير المخلوق لا مجرد رمز كما اعتقد بر لعام واعوانه عن ضلال.

وفيما بعد، فإن الكنيسة كلها، وعبر مجامع محلية انعقدت في القسطنطينية ابرأت القديس غريغوريوس بالاماس، ونادت أن الحياة في المسيح ليست فقط اخلاق الانسان، انما هي التأله، وهذا يعني المشاركة في مجد الله، ومعاينة الله، ونعمته، ونوره غير المخلوق.

نحن مديونون للقديس غريغوريوس بالاماس كثيرًا، لأنه بالاستنارة التي تلقاها من الله، وبخبرته ولاهوته، سلّمنا تعليم الكنيسة والخبرة الابدية المتعلقة بتأله الانسان. فالمسيحي ليس مسيحيًا لأنه يستطيع ببساطة أن يتكلم عن الله. انه مسيحي لأنه يستطيع أن يختبر الله (أو تكون له خبرة مع الله). وهذا يشبه مثلاً ان تحب شخصًا ما، فتكلمه، وتشعر أنك وإياه واحد، فتُسرّ به. الأمر نفسه يحصل عندما يتّحد الانسان بالله. ليس هناك مجرد علاقة خارجية، إنما اتحاد ميستيكي بين الله والانسان في الروح القدس.

وحتى الوقت الحاضر، يعتبر الكاثوليكيون النعمة الالهية، التي هي قوة الله، قوة مخلوقة. ولسوء الحظ، فإن هذا الامر أيضًا هو واحد من الفروقات العديدة التي يجب ان تؤخذ في الاعتبار، في الحوار اللاهوتي الدائر معهم. فضلاً عن ذلك، فإن الـ filioque،

ورئاسة البابا، والعصمة، ليست الفروقات الجوهرية الوحيدة بين الكنيسة الارثوذكسية، والكنيسة الكاثوليكية، فهناك أيضًا الأمور المذكورة اعلاه. واذا أصرّ الكاثوليك على ان نعمة الله مخلوقة، فنحن لن نستطيع أن نتصالح معهم، حتى ولو أنهم اقروّا بكل الباقي. بعد هذا، كيف يتحقق التأله، في حياة الانسان، إذا كانت النعمة الالهية، في الروح الكلي قدسه، مخلوقة، وليس غير مخلوقة؟

الفصل السادس

مستلزمات التأله

بالطبع، يؤكّد الاباء القديسون أننا نستطيع أن نبلغ إلى التأله في الكنيسة. ويبقى، على كل حال، أن التأله هو عطية من الله، وليس أمرًا يمكننا أن نبلغ اليه بقوتنا. بطبيعة الحال، ينبغي ان نتوق، ونجاهد، ونستعد كي نستأهل ونريد أن نستقبل ونصون هذه العطية العظيمة التي من الله، فالله لا يريد أن يعمل شيئًا بدون ارادتنا، ومع ذلك فالتأله هو عطية من الله. لهذا السبب يقول الآباء القديسون انه من جهة، ينبغي أن نختبر التأله، ومن جهة ثانية، الله هو الذي يحقق التأله. بيد اننا نستطيع أن نعدّد بعض الشروط الضرورية في مسيرة الانسان إلى التأله.

١- التواضع :

بالنسبة للآباء القديسين، شرط التأله الاول هو التواضع. فالانسان لا يستطيع ان يسلك في طريق التأله، ولا أن يقبل النعمة الالهية، أو يدخل في الفة مع الله، بدون التواضع المغبوط. فهو أي الانسان، يحتاج إلى التواضع كي يدرك أن هدف حياته هو التأله. بدون التواضع، كيف تُقر أن هدف حياتك لا يكمن فيك، بل في الله؟

وما دام الانسان يحيا أنانيًا، متمحورًا حول ذاته anthropocentrically، ومعزولاً، فإنه يجعل نفسه محور حياته

وهدفها. فهو يعتقد أنه يستطيع أن يكّمل نفسه بنفسه، فيحّدد هويتها، ويؤلّه ذاته. وبعد كل هذا، هذه هي روح الحضارة المعاصرة، أعني بها ان يخلق الانسان عالمًا افضل، أكثر عدلاً، ولكن بطريقة ذاتية autonomous، عالمًا يجعل الانسان مركزًا لكل شيء، بدون العودة إلى الله، وبدون الاقرار ان الله وحده هو مصدر كل خير وصلاح. في هذا تكمن خطيئة آدم الذي ظن انه يستطيع أن يصبح الهًا، فيبلغ غايته ومبتغاه، وبمحض قواه الذاتية. وكل الدساتير الانسانية عبر العصور ترتكب خطيئة آدم نفسها، فهي لا تعتبر الاتحاد بالله ضرورة، من أجل كمال الانسان.

كل ما هو أرثوذكسي يتمحور حول الله theanthropically - centred وفيه يكون المسيح (الله-الانسان)، مركزًا. وكل ما ليس ارثوذكسيًا، البروتستانتية، البابوية، الماسونية، شهود يهوه، الالحاد، وكل ما هو خارج نطاق الارثوذكسية، عنده قاسم مشترك واحد هو: الانسان هو المركز. بالنسبة الينا، المسيح هو المركز. وهكذا من السهل أن تصبح هرطوقيًا، أو من اتباع شهود يهوه، أو ماسونيًا، أو أي شيء اخر. ولكن كي تصبح مسيحيًا أرثوذكسيًا ينبغي أن تقبل المسيح، على أنه مركز العالم، وأنك أنت لست محور العالم.

وهكذا فإن بداية الطريق نحو التأله هي التواضع، أي أن ندرك ان هدف حياتنا لا يكمن فينا، بل هو في أبينا صانعنا وبارينا.

فضلاً عن ذلك، علينا أن نتّضع اذا أردنا أن ندرك أننا مرضى، وأن فينا ضعفات واهواء.

إن من يبدأ المسيرة إلى التأله، ينبغي أن يكون عنده تواضع مستمر، وذلك كي يبقى باستمرار في هذه المسيرة. لأنه اذا قبل الايحاء القائل أنه يعمل حسنًا وانه يتقدم بجهده الخاص، عندها يغلبه

الكبرياء، ويخسر ما قد جنى، ويعوزه أن يبدأ من جديد كي يكون متواضعًا فيرى ضعفه، ومرضه الانساني، فلا يعود يعتمد على نفسه، بل على نعمة الله، كي يبقى باستمرار في المسيرة نحو التأله.

لهذا السبب نتأثر كل التأثر عندما نطالع حياة القديسين ونقف على تواضعهم العظيم. ومع انهم كانوا قريبين جدًا من الله، وسطعوا بنور الله، واجترحوا العجائب، وفاح منهم الطيب، الا أنهم في الوقت نفسه كانوا يعتبرون انفسهم بدون كرامة، وأنهم بعيدون عن الله، وأيضًا انهم اسوأ البشر. وهذا التواضع عينه جعلهم الهة بالنعمة.

٢ - التروّض على النسك :

يلاحظ الآباء القديسون ان للتأله مراحل بدءًا من الادنى، مرورًا إلى الاعلى. فبعد اقتناء التواضع، نبدأ بالتوبة مع الكثير من الصبر في جهادنا اليومي في المسيح، مع ممارسة وتطبيق وصايا المسيح المقدسة، وذلك من أجل التطّهر من الاهواء. فضلاً عن ذلك، يقول الآباء القديسون ان الله نفسه يقيم محتجبًا في وصاياه، وأن المسيحي عندما يحفظ الوصايا بداعي محبته وايمانه بالمسيح، يكون في الفة معه.

وبالنسبة للآباء القديسين، هذه هي المرحلة الاولى من التأله، وتسمى «عملاً» = Praxis». انها الارشاد العملي، وبداية المسيرة نحو التأله.

وهذا ليس أمرًا سهلاً يحصل من تلقاء ذاته، وذلك لأن الجهاد من أجل استئصال الاهواء من داخلنا، عظيم. والمطلوب جهد كثير، وذلك كي تتنقى النفس الداخلية غير المفلوحة شيئًا فشيئًا، من

الاشواك وحجارة الاهواء، وهكذا تتم فلاحتها روحيًا، فتقع فيها بذار كلمة الله، وتأتي بالثمر. من أجل هذا، نحتاج إلى جهاد عظيم ومستمر ضد انفسنا. لهذا قال الرب: «لأن ملكوت الله يغتصب اغتصابًا والغاصبون يجدونه» (متى ١١ : ١٢). ومن جديد يعلّمنا الاباء القديسون، فيقولون: اعط دمًا وخذ روحًا. بكلام آخر، لا يمكنك أن تأخذ الروح القدس، الا اذا بذلت دم قلبك في الجهاد من أجل التطهر من الاهواء، ومن أجل التوبة الحقيقية وبعمق، ومن أجل اقتناء الفضائل.

وجميع الفضائل هي وجوه لفضيلة عظيمة واحدة، اعني بها فضيلة المحبة. وعندما يقتني المسيحي المحبة، تدين له كل الفضائل. المحبة تطرد من نفس الانسان علة كل الشرور، وكل الاهواء. وهذه العلة بالنسبة للاباء، هي الانانية. كل الشر فينا ينبع من الغرور الذي هو الحب المريض الذي يبديه المرء نحو نفسه. من هنا، فإن في كنيستنا جهدًا نسكيًا، بدونه ليس من حياة روحية، ولا جهاد ولا تقدّم. نحن نطيع، نصوم، نسهر، نصنع سجدات، ونقف على أرجلنا لساعات وذلك كي نتنقى من الاهواء. لكن اذا توقفت الكنيسة الاثوذكسية عن أن تكون نسكية، فإنها لا تعود أرثوذكسية، ولا تعود قادرة أن تساعد الانسان على التخلص من أهوائه كي يصبح الهًا بالنعمة.

لقد طوّر آباء الكنيسة تعليمًا أنثروبولوجيًا عظيمًا ومتكاملاً عن النفس واهواء الانسان. بالنسبة للاباء هناك النفس العاقلة، والقوى السريعة التأثر. وهذه القوى السريعة التأثر فيها النفس الغضبية والشهوانية. اما النفس العاقلة ففيها الافعال العاقلة أعني بها الافكار والمحاسبة. أما النفس الغضبية فهي العواطف الايجابية والسلبية، كالحب والكراهية. والنفس الشهوانية هي اشتهاء اللذة والحسيّات،

والجشع، والشراهة، والرغبات الجسدية والاهواء الانسانية. فإذا كانت اقسام النفس العاقلة والغضبية والشهوانية غير متطهّرة، فإن الانسان لا يستطيع أن يستقبل في داخله نعمة الله، وبالتالي لا يتأله. والنفس العاقلة، تتنقى باليقظة، أعني بذلك حراسة أفكار الذهن. وهذا يعني الاحتفاظ بالافكار الصالحة، ونبذ الافكار الشريرة. أما النفس الغضبية، فتتنقى بالمحبة. وأخيراً فإن النفس الشهوانية تتنقى بالرصانة. وكل القوى معًا، تتنقى وتتقدس بالصلاة.

٣ - الاسرار المقدسة والصلاة :

المسيح، ومن خلال الاسرار المقدسة (المعمودية، الميرون، الاعتراف، المناولة)، يجعل نفسه في قلب الانسان. والمسيحيون الذين دخلوا في إلفة مع المسيح، عندهم الله ونعمته في داخلهم، وفي قلوبهم، وذلك لأنهم اعتمدوا، واعترفوا واقتبلوا سر الشكر.

على كل، تظلّل الاهواءُ النعمةَ الالهية، كما يغطي الرماد الجمرَ. أما القلب فيتنقى من الاهواء، بالتمرّس على الفضائل والصلاة، فتضطرم جمرة النعمة الالهية ويشعر المؤمن بالمسيح في قلبه الذي هو مركز كيانه.

ان كل صلاة في الكنيسة تساعد على تنقية القلب. وما يساعد على نحو خاص، هي صلاة القلب، أو صلاة الرب يسوع: ايها الرب يسوع المسيح، ابن الله ارحمني أنا الخاطئ. هذه الصلاة يتناقلها الرهبان منذ القديم في جبل آثوس ولها الميزات التالية: انها فردية، وتتألف من جملة واحدة، ومن شأنها أن تساعد على تركيز انتباهنا في الذهن بسهولة. وبالانتباه يدخل الذهن في القلب فنصحو ونتيقظ كي لا يكون الذهن مشتتًا بأمور أخرى ومعان أخرى الصالحة منها والشريرة. على هذا النحو يكون انشغال الانسان بالله.

وممارسة صلاة القلب، والتي يمكنها، وفي وقت محدد، وبنعمة **الله، ان تكون** دائمة، هي علم بحد ذاته، فن مقدس يصفه القديسون **الذين يحملون** ايماننا، بالتفصيل، في كل كتاباتهم الطاهرة، وفي **مختارات مطوّلة** من نصوص ابائية تدعى، في العادة، الفيلوكاليا.

وهذه الصلاة تساعد الناس وتهبهم الفرح. وعندما يتقدّم **المسيحيون فيها**، وفي الوقت نفسه يحيون في انسجام مع وصايا المسيح **المقدسة**، ومع الكنيسة، عندها يستأهلون أن يقتبلوا خبرة النعمة **الالهية**، فيبدأ تذوّق حلاوة الشركة مع الله، وبالخبرة هذه، يتذوقون **ويعاينون أن** الرب كريم ولطيف (مزمور ٣٣: ٩). وبالنسبة الينا نحن **الارثوذكسيين**، الله ليس فكرة، ولا هو شيء نفكر فيه ببساطة، فنتعلّم **عنه، ونقرأ عنه**. الله شخص ندخل معه في شركة حياة شخصية. الله **شخص نحياه** ومنه نتلقى الخبرة.

عندها نفهم مقدار الفرح غير الموصوف الذي لا ينطق به، عندما **يكون المسيح** حيًا، ونكون مسيحيين مستقيمي الرأي.

ومما يساعد المسيحيين الذين في العالم في خضم انشغالات **واهتمامات** جمة، هو أن يوفّروا لأنفسهم دقائق معدودات من **السلام**، من أجل ممارسة هذه الصلاة.

وبالطبع، من شأن كافة الاعمال والواجبات التي تكون بمقتضى **مشيئة الله**، لا سيما تلك التي نؤديها بتواضع ومحبة، ان تقدّس **المسيحي**. بيد أن الصلاة ضرورة وحاجة. ففي غرفة تعبق بالسلام، **ومن المفضّل** أن يكون هذا بعد استعداد روحي يتجلّى في اشعال **مصباح زيت** صغير، أمام الايقونات، ومع بخور مشتعل، وبعيدًا قدر **الامكان عن** الضوضاء والتشتّت، وبعد برهة من الراحة من الافكار،

يستطيع المسيحيون أن يُنزلوا أذهانهم إلى قلوبهم وهم يردّدون الصلاة التالية: «أيها الرب يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ». ياله من سلام، يا لها من قوة تلك التي تستمدّها النفوس من طمأنينة الله! يا لها من مؤازرة تلك التي تجلبها الصلاة إلى نفوس المسيحيين طيلة النهار، فيقبعون في سلام لا اضطراب فيه ولا قلق! والصلاة هذه من شأنها ان تتيح لملكات النفس أن تكون في وحدة وانسجام فيما بينها.

غير ان فئة من الناس تطلب القليل من الطمأنينة الروحية عبر وسائل اصطناعية، وفي بؤر شيطانية خداعة، مثالاً على ذلك ما يمكن تسميته بالاديان الشرقية، حيث يحاول هؤلاء الناس أن يبحثوا عن سلام عبر ممارسات خارجية، وتأمّل، وغير ذلك، وذلك بقصد تحقيق التوازن المنشود بين النفس والجسد. والخطأ يكمن في أن الانسان، في مثل هذا المناخ يحاول أن يقصي العالم المادي، والافكار المختلفة، دون أن يتحدث مع الله بل يناجي نفسه، فيؤول به الامر إلى محورية الانسان anthropocentricity، فيخفق ويفشل.

الفصل السابع

خبرات التأله

وتتماشى خبرات التأله ودرجة التطهّر عند الانسان، فكلّما ازداد الانسان تطهّرًا من الاهواء، كلما سَمَتْ الخبرة التي يتلقّاها من الله، فهو يعاين الله بمقتضى قول الكتاب: «طوبى لأنقياء القلوب، فإنهم لله يعاينون» (متى ٥: ٨)

عندما يبدأ المرء التوبة والاعتراف والنوح على خطاياه، فإنه يتلقّى أولى خبرات أو اختبارات النعمة الالهية. واختبارات كهذه، هي أولاً دموع التوبة التي تملأ النفس فرحًا لا يوصف، ويعقبها توًا سلام عميق، من هنا فالنوح هذا على خطايانا يدعى «النوح المولّد الفرح»، على نحو ما قال الرب في التطويبات: «طوبى للباكين الآن، لأنهم سيتعزّون» (متى ٥: ٤).

بعد ذلك يرتقي الانسان إلى مراتب اسمى، كالاستنارة الالهية التي بها يستنير العقل ويعاين الاشياء والعالم والناس، ولكن من زاوية مختلفة.

وهكذا فإن حب المسيحي لله يزداد، ويلي ذلك مزيد من الدموع، وهي أسمى وتكون بمثابة دموع محبة الله، دموع العشق الالهي، بحيث أنها لا تعود دموعًا على الخطايا، فالانسان الآن بات مقتنعًا أن الله غفر له.

وهذه الدموع الاخرى التي تجلب فرحًا أعظم، سرورًا، وسلامًا للنفس، تكون بمثابة خبرة اسمى للتأله.

بعدها يأتي الانسان إلى اللاهوى[1]، وهي حياة تخلو من الاهواء، ومن الضعف المقترن بالخطايا، فيصبح المرء مسالمًا، هادئًا امام كل هجمة خارجية، محميًا من الكبرياء والبغضاء والغضب وكل رغبات الجسد.

وهذه هي المرحلة الثانية من التأله وتدعى ثيوريا.

والانسان، اذ يتنقى من الاهواء، يستنير بالروح القدس، فيسطع ويتأله. والثوريا تعني الرؤية. وثيوريا الله تعني رؤية الله. والانسان كي يرى الله، يجب ان يكون متألهًا، وهكذا فثيوريا الله، تعني التأله.

وعندما يتنقى الانسان حقًا، ويكون قد قدّم نفسه لله بالكلية، عندها يتلقّى أعظم خبرة انسانية للنعمة الالهية.

وبالنسبة للآباء القديسين، فإن هذه الخبرة هي رؤية نور الله غير المخلوق، الخبرة التي يعرفها الذين تقدّموا على نحو عظيم، في التأله، وهم قلّة في كل جيل، وهذا النور يراه قديسو الله، ويُرون فيه تمامًا كما يُصوَّرون في الايقونات المقدسة، والهالة فوق رؤوسهم.

وعلى سبيل المثال، نقرأ في سيرة القديس باسيليوس الكبير انه عندما كان يصلي في قلايته (رآه الذين استطاعوا ان يروه)، فكان هو والقلاية التي يقيم فيها يسطعان بالنور الالهي غير المخلوق، نور النعمة الالهية. وفي حياة الكثيرين من الشهداء الجدد القديسين الذين

(١) apatheia = dispassion

يحملون ايماننا، نطالع أن الاتراك علّقوا أجسادهم في ساحات المدن (بعد عذابات مريرة) وذلك كي يدب الهلع في باقي المسيحيين فكان هناك مرات عديدة في الليل نور يسطع حولهم، وكان النور يسطع حولهم على نحو منظور وكثيف، حتى أن الاعداء انفسهم أمروا بانزال الاجسادالمعلقة لأن ذلك كان دليلاً على صحة المعتقد (الايمان). فقد أراد الاعداء أن يتجنّبوا المهانة في عيون المسيحيين الذين رأوا أن الله مجّد شهداءه القديسين.

ان نعمة التأله تحفظ أجساد القديسين، أو الرفات المقدسة، فيعبق طيبها، وتجترح بها العجائب. ويقول القديس غريغوريوس بالاماس: «ان نعمة الله بعد اتحادها بنفوس القديسين، تسكن في أجسادهم المقدسة، وتهبهم نعمة أيضًا وهذه النعمة ليست لأجسادهم فقط، بل لأضرحتهم وأيقوناتهم وكنائسهم. لهذا نحن نكرم الايقونات ونقبّلها، ونكرم رفات القديسين وأضرحتهم وكنائسهم. ففي هذه كلها بعض من نعمة الله حازها القديس في نفسه بفضل اتحاده بالله وبداعي تأله.

لهذا السبب نحن في الكنيسة، نتمتع بنعمة التأله ليس في النفس فقط، بل بالجسد أيضًا. فالجسد يجاهد مع النفس. والاثنان يتمجدان معًا، وذلك لكون الجسد هيكل الروح القدس الذي يسكن فيه.

ان هذه النعمة تفيض من الرب القدوس (الله - الانسان) يسوع المسيح، وتنسكب على الكلية القداسة، وعلى القديسين، لتصل الينا نحن البائسين.

ويليق بكل تأكيد أن نذكر أن ليست جميع الخبرات التي عند المسيحيين هي خبرات يعوّل عليها في مسألة التأله، والخبرات

الروحية. فكثيرون من المسيحيين خدعوا من الشيطان، ومن الظواهر النفسية. ولكي نتجنب الوقوع في الوهم والتأثير الشيطاني، يجب أن تنكشف هذه الخبرات جميعها بتواضع، للأب الروحي الذي يستطيع بنعمة الاستنارة الالهية أن يدرك أصالتها أو زيفها فيقود النفس المعترفة إلى ما هو موافق.

وعلى العموم فإن الطاعة لأبينا الروحي هي واحدة من أهم الوجوه في حياتنا الروحية بها نقتني الروح الكنسيةكي نكون تلاميذ المسيح، وبها نقتني الجهاد الشرعي الذي سيقودنا إلى الاتحاد بالله، على نحو مضمون .

وعلى الدوام، فإن المكان الخاص الفريد للتأله في الكنيسة، هو الرهبنة، حيث يتقدس الرهبان ويقبلون الخبرات الرفيعة من جرّاء الاتحاد بالله. لذلك فالرهبان الذين يشاركون في التأله والقداسة، يسندون الكنيسة كلها، لأنه، وكما يؤمن المسيحيون الذين يتّبعون التقليد الشريف، فإن جهاد الرهبان الامين، له تأثير ايجابي على حياة كل مسيحي مجاهد في العالم. من هنا، وفي الارثوذكسية، فإن شعب الله يكنّ احترامًا عظيمًا للرهبنة.

بعد هذا كله، نحن في الكنيسة نشارك في جماعة القديسين وعندنا الخبرة والفرح من جرّاء اتحادنا في المسيح. بهذا نعني أننا في الكنيسة لسنا أعضاء معزولين، انما نحن شركة، أخوة، جماعة اخوية، ليس فقط فيما بيننا، بل أيضًا مع قديسي الله الذين يحيون على الارض اليوم، أو أولئك الذين سبق أن غادروها. حتى الموت نفسه، لا يفصل المسيحيين عن بعضهم، فهو، أي الموت لا يستطيع أن يفصل المسيحيين، لأن الاحياء والاموات هم واحد في جسد المسيح القائم من الموت.

لهذا السبب، ففي كل أحد، وفي كل مرة يقام القداس الالهي، نكون جميعنا بصحبة الملائكة والقديسين في كل العصور. حتى اقرباؤنا الراقدون انفسهم، يكونون حاضرين (طبعًا اذا كانوا متّحدين بالمسيح)، فنحن كلنا هناك نتّصل فيما بيننا على نحو سّري، ليس خارجيًا، بل في المسيح.

وهذا يتّضح من خدمة اعداد الذبيحة الالهية حيث يكون الحمل الالهي وسط الصينية وعن يمينه الجزء الخاص بالسيدة العذراء، والطغمات التسع عن يساره، وتحته تكون أجزاء المسيحيين الاحياء والراقدين. وبعد تقديس القرابين، تغمس هذه الاجزاء كلها في دم المسيح.

هذه هي بركة الكنيسة العظيمة لنا، أعني بذلك أننا أعضاؤها، ونستطيع أن نتّحد ليس مع الله فقط، بل فيما بيننا ايضًا، كوننا أعضاء جسد يسوع المسيح.

والمسيح الرب، هو رأس هذا الجسد المقدس، فالحياة تتدفّق من الرأس إلى الجسد. وبالطبع هناك في هذا الجسد أعضاء حية، ولكن هناك في الوقت نفسه أعضاء لا تملك الحيوية ذاتها، اذ ليس لجميع الاعضاء صحة تامة، لا بل أن أغلبنا ننتمي إلى الفئة الاخيرة. لكن، رغم ذلك، فالحياة، أعني بها الدم السليم، يتدفّق من المسيح نفسه، ومن أعضائه الاحياء إلى من هم اقل صحة وعافية، وشيئًا فشيئًا، يتمتع الجميع بالصحة الجيدة، ويتقوون. لهذا ينبغي أن نكون في الكنيسة، أي أن نأخذ الصحة والعافية. أما اذا تغرّبنا عنها، فلن تكون لنا امكانية للشفاء والحياة.

بالطبع، هذا كله، لا يتحقق دفعة واحدة، فالمسيحي الارثوذكسي، ينبغي أن يجاهد طوال حياته، تدريجيًا، وبانتظام،

وذلك كي يبلغ نعمة الله التي في الكنيسة، الأمر الذي يتعذر تحقيقه بدون تواضع وتوبة وصلاة ومشاركة في الاسرار الالهية، وذلك كي يتقدس هذا المسيحي ويتأله. هذا هو الهدف العظيم من حياتنا. ولا يهم البتة اين نصل في مسعانا، لأن القيمة هي في جهادنا الذي يباركه الله بغنى وغزارة، الآن وفي الدهر الآتي.

الفصل الثامن

اخفاق الكثيرين من الناس في بلوغ التأله

رغم اننا تلقّينا الدعوة من أجل هذا الهدف العظيم، أعني به، أن نتّحد بالله ونصبح آلهة بالنعمة، ونتمتع بهذه البركة العظيمة التي من اجلها خلقنا صانعنا وبارينا، غير أننا في العادة نحيا، وكأن هذا الهدف العظيم والكلي السمو والرفعة، غير موجود. وهكذا تكون حياتنا ملأى بالاخفاق.

لقد خلقنا الله القدوس، من أجل التأله. لذلك فعندما نخفق في الوصول اليه، تكون حياتنا اخفاقًا وفشلاً.

دعونا الآن نذكر بعض الأسباب التي تكمن وراء هذا الاخفاق:

١- الانشغال بالاهتمامات الدنيوية :

قد ننجز أمورًا كثيرة، جميلة وصالحة، فندرس، ونتّخذ مهنة ونؤسس عائلة، ونجمع ثروة، ونقوم بأعمال الاحسان. الاّ اننا عندما نفهم العالم ونستعمله افخارستيًا على أنه عطية الله، عندها فإن كل شيء سيتّحد أو يقترن بالله، فيصبح طريق اتحاد به. الا أننا عندما لا نتّحد بالله، نكون قد فشلنا، ويكون كل شيء عبثًا.

والناس في العادة يخفقون، لأنهم ينقادون إلى كثرة الاهداف الثانوية في حياتهم. فهم لا يجعلون التأله الهدف الاول والاساسي في حياتهم. انهم منشغلون عن الاهداف الابدية لا بل يبذلون ذواتهم

من كل القلب، من أجل الاهداف الثانوية ناسين أن الحاجة هي إلى واحد (لوقا ١٠ : ٤٢)

وفي هذه الايام وعلى نحو خاص، الناس دائمو الانشغال (بالاهتمامات الدنيوية)، وربما هي خطة الشيطان، كي يخدع المختارين ايضًا، وبنتيجة ذلك يجعلهم يهملون خلاصهم. مثلاً، اليوم علينا ان ندرس، وأن نقرأ، وبالتالي ليس عندنا وقت للصلاة، ولا لحضور الخدم في الكنيسة. كما وليس عندنا وقت للاعتراف وللمناولة. وغدًا عندنا لقاءات واجتماعات ينبغي التواجد فيها. كما وعندنا مسؤوليات شخصية واجتماعية ينبغي الاضطلاع بها وانجازها. كيف اذا سنجد وقتًا لله؟ اما بعد غد، فعندنا حفلة زفاف ينبغي حضورها. وغيرها من الاهتمامات العائلية. اذا يستحيل ان ننشغل بالشؤون الروحية، لابل على الدوام نردد (على مسمع الله): لا استطيع أن أجيء، لذا أسألك أن تعفيني (لوقا ١٤ : ١٩-٢٠).

وهكذا يفقد كل ما هو جميل وشرعي قيمته، وما سبق ذكره، هو ذو قيمة حقيقية، وملموسة، ولكن شريطة ان يكون العمل به بمقتضى نعمة الله. بكلام آخر، عندما تكون اعمالنا لمجد الله، ويكون لاعمالنا قيمة حقيقية ملموسة، وعندما لا نكف عن التوق والرغبة والسعي إلى ما هو وراء الدرس، والمهنة والعائلة وكل المسؤوليات المقدسة والصالحة الاخرى، مع كافة النشاطات. لكل هذه النشاطات قيمة حقيقية عندما لا نكف عن التوق إلى التأله. وبالتأله فقط، تجد كل هذه الامور المذكورة معناها الحقيقي ومنظورها الابدي، فننتفع بها.

قال الرب: «أطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه والباقي كله يزاد لكم» (متى ٦ : ٣٣). ملكوت الله هو التأله واقتناء نعمة الروح الكلي قدسه.

وعندما تدخل النعمة الالهية، وتملك داخل الانسان، عندها يصبح الانسان ملكًا لله. ونعمة الله تدخل في حياة الناس، من خلال المتألهين، وهكذا نمتلك الشركة مع الله في ملكوته.

ويعلّمنا الاباء القديسون في الصلاة الربانية: «ليأت ملكوتك»، الأمر الذي يعني أن تأتي نعمة الروح القدس. وهذه النعمة عندما تأتي إلى الانسان، تؤلهه.

٢ - الاخلاق :

مع كبير الأسف، فإن روح الاخلاق، moralism، أعني بذلك حصر الحياة المسيحية بالتحسن الاخلاقي، قد أثّر سلبًا، وإلى حد بعيد على تقوى وروحانية المسيحيين في بلدنا. وبسبب تأثيرات لاهوتية غربية، فإننا في العادة، نكف عن طلب التأله ولا نسعى اليه.

على كل حال فإن التعليم عن التحسن الاخلاقي هو موقف يتمحور حول الانسان، بحيث أنه يجعل الانسان مركزًا للحياة. والجهد الانساني، لا نعمة الله، يسود (هكذا ممارسة)، فتعطي الانطباع ان مبادئنا الاخلاقية هي التي تخلصنا، لا نعمة الله. وهكذا، ففي مثل هذه الظروف، وهذه الحالة من الوجود، نَتَعرّى من الخبرات الحقيقية عن الله، والنفس لا تتعزى حقًا، ولا يُروى ظمأها وعطشها. وقد اختُبر هذا التوجيه، وجُرّب، لكنه اثبت فشله، وذلك لكونه لا يمثل الروح الاصيلة التي لكنيسة الله. كما أنه مسؤول، إلى حد بعيد عن الالحاد واللامبالاة في الحياة الروحية عند الكثيرين من اترابنا وبني جنسنا لاسيما الايافع منهم.

دعونا نحن المعلمين، الاولياء، الاكليريكيين وكل الفعلة في الكنيسة وفي مدارس الاحد، في عظاتنا، وفي كل مكان، دعونا بدل

الكلام عن تحسن عقيم عند الانسان، نقود المسيحيين نحو التأله الذي بمقتضى الروح الاصيلة وخبرة الكنيسة. بعد هذا، فإن الفضائل مهما عظمت، لاتؤلف هدف حياتنا المسيحية، انما تبقى دائمًا مجرد وسائل وسبل تُعدّنا لقبول التأله أي نعمة الروح القدس كما يعلّمنا القديس سارافيم ساروف حرفيًا.

٣ - النزعة الانسانية المتمحورة حول الانسان.

والانسانية المسيَّرة من ذاتها (autonomous) كنظام اجتماعي فلسفي، منقسم ومستقل عن الله، من شأنها أن تفضي إلى حضارة ترتكز على الأنا، وهذا، في ذاته يؤلف عبءًا خطيرًا على الانسان المعاصر. اذ من شأن ذلك ان يغرّبنا عن ايماننا الارثوذكسي باسم ما يمكن الاصطلاح على تسميته «قيمة الانسان وتحرره». على كل حال، هل ثمة قيمة أعظم للانسان من التأله؟

الفصل التاسع

نتائج الارشاد الروحي على قاعدة التأله

الارشاد الروحي الذي تقدّمه كنيستنا الارثوذكسية من خلال الصلوات المقدسة، والخدم الكنسية، فضلاً عن اللاهوت الابائي والرهبنة، هو الدليل إلى التأله، ويتمحور حول الله الانسان -thean thropocentric في المسيح الله المتجسد الذي هو مركز الحياة.

فرح عظيم يدخل إلى حياتنا عبر وعينا لعظمة هدفنا، وعبر وعينا للبركة التي تنتظرنا.

ومن منظور التأله، فإن الارشاد الروحي يحلّي الآم كل الصعوبات والاحزان في الحياة. نجاهد جاعلين التأله نصب اعيننا، وعندما نرى احدنا الآخر مرشحين (معًا) كي نكون آلهة، للحال يتغيّر الموقف من ابناء جنسنا. وكيف يكون اعمق واكثر جدوى ومعنى الارشاد الذي نسديه لآولادنا؟ كيف سيكون حب الأب والأم لفلذات اكبادهم؟ كيف سيكون احترامهما لهم؟ كيف ستكون المهمة المقدسة التي يضطلعان بها تجاههم من أجل مساعدتهم على بلوغ التأله، الهدف الذي من أجله، وبمعونة الله، جيء بهم إلى العالم؟ وبالطبع كيف يستطيع الاهل ان يساعدوا أولادهم إذا كانوا هم أنفسهم غير متّجهين نحو التأله؟ وأيضًا، كم من احترام للذات، بدون أنانية وبدون كبرياء الحادي، يكون لنا، إذا أدركنا أننا مخلوقون من أجل هذا الهدف؟

والاباء القديسون اللاهوتيون في الكنيسة يعلنون ويعلّمون اننا عندما نتجاوز الفلسفة المتمحورة على الانسان، فلسفة الانا والعجب

بالذات، فإننا نصبح اناسًا حقيقيين، ومخلوقات حقيقية، وذلك لأننا نقابل الله بالحب والاحترام، ونقابل بني جنسنا بالكرامة والتقدير، فلا نعتبر الانسان أداة للمتعة والاستغلال، انما صورة الله المتجهة نحو التأله.

وطالما نحن متقوقعون على انفسنا، أسرى أنانيتنا، فإننا سنبقى افرادًا، لا اشخاص. لكن بمقتضى الارشاد الروحي، الذي على قاعدة التأله، وبنعمة الله، وبالتعاضد (Synergy)، فإننا في اللحظة التي نخرج فيها من نفوسنا المتقوقعة، الفردية، فنبدأ بالحب، باذلين ذواتنا أكثر فأكثر أمامه وأمام بني جنسنا، عندها نصبح اشخاصًا حقيقيين. بكلام آخر، عندما يتقابل الأنا مع الأنت الذي لله، ومع الانت الذي لأخوتنا، عندها نبدأ باكتشاف ذاتنا الضائعة، في شركة التأله التي من اجلها خلقنا، ونستطيع ان ننفتح، ونتّصل، ونسرّ ببعضنا، لكن لا على نحو اناني.

هذه هي روح العبادة المقدسة التي فيها نتعلم أن نتجاوز اهتماماتنا الفردية المحدودة ومصالحنا، التي اليها يقودنا الشيطان، الخطيئة، واهواؤنا، فنتعلم أن ننفتح في شركة البذل والحب، في المسيح.

ان ادراك هذه الدعوة العميقة (الدعوة إلى التأله)، يكمّل الناس بحق، ويريحهم.

ترى هل من نزعة انسانية أخرى مهما بلغت من التقدمية والتحرر، كما قد تبدو، ثورية كالنزعة الانسانية التي في كنيستنا والتي من شأنها أن تؤهل الانسان كي يصبح الهًا؟ حقًا إن انسانية عظيمة كهذه، موجودة في الكنيسة فقط.

وفي أيامنا هذه على نحو خاص، يحاول الكثيرون خداع الناس، لا سيما الشباب منهم، عن افتراء وكذب، من خلال نزعات انسانية مزيفة تبتر الانسان ولا تكمّله. وبسبب من ذلك، فمن الاهمية بمكان التشديد على الارشاد الروحي الذي في الكنيسة.

الفصل العاشر

نتائج الارشاد الروحي الذي لا يؤول إلى التأله.

الشباب اليوم، يطلبون الاختبار. ولما كانت الحياة المادية قد أعيتهم، فضلاً عن المجتمع العقلاني الذي سلّمناه لهم نحن معشر الكبار، لذا فإن أولادنا المخلوقين على صورة الله، والذين سبق ان دعاهم هو كي يصبحوا، بالنعمة آلهة، إنما يتوقون إلى ما هو وراء الاشكال العقلية التي تتميز بها الفلسفة المادية والتربية الملحدة التي نقدمها لهم. أنهم يبتغون اختبار الحياة الحقيقية، ولا يقنعون بمجرد السماع عن الله. انهم يرغبون أن يختبروا الله، نعمته ونوره. ولعدم وعيهم أن الكنيسة تستطيع أن تعزّيهم، وان عندها الخبرة التي يطلبون، فإن الكثيرين منهم يطلبون باطلاً وعبثًا، ويلجأون إلى بدائل رخيصة ومتعددة بحثًا عما هو فوق ووراء المنطق.

وبعضهم ينقادون إلى اشكال من الصوفيات الشرقية، مثل اليوغا. وغيرهم يتوجّهون إلى الشعوذات، وسواهم إلى العرفانية، ومؤخرًا، ومع كبير الآسف، فقد توجّه بعضهم إلى نزعات شيطانية.

اما لجهة الاخلاق، فليس عندهم حدود. ولما كان يعوزهم المعنى والهدف، وهو ما يوحّد الناس بالله القدوس، فإن المبادىء الاخلاقية تصبح لاسيّما اليوم عديمة المعنى بالكلية.

لهذا السبب هناك أحداث مأساوية متفشية كالفوضوية والارهاب. وكثيرون من الناس، في العمق يريدون أن يشبعوا قواهم

الداخلية، لكنهم يعجزون، لأنهم لم يتلقوا الارشاد الروحي الذي يقود إلى التأله، فيستسلمون تباعًا لكل عنف وتطرف ضد بني جنسهم.

ان غالبية الشباب، وغيرهم من البشر أيضًا، يهدرون في الملذات والشهوات الجسدية زمان حياتهم الغالي، وقوتهم الممنوحة لهم من الله للفلاح في السعي إلى التأله. ومع الاسف، ففي العادة، وبموافقة الدولة، تصبح الملذات والشهوات الجسدية اصنامًا معاصرة، الهة معاصرة تلحق دمارًا عظيمًا بأجساد الشباب ونفوسهم.

وآخرون يحيون بدون مُثُل، من أي نوع، فيهدرون وقتهم على غير هدى في اعمال ونشاطات مؤذية وغير مفيدة. وآخرون أيضًا يتلذذون في التسابق بسرعات جنونية وسط الشوارع، وهم لا يترقبون العواقب الوخيمة كالاصابات والموت. وآخرون أيضًا وبعد تجوال هنا وهناك، يستسلمون بدون شروط في تبعية شيطانية للمخدرات، الطاعون الجديد في هذا القرن.

وأخيرًا، فإن كثيرين من الشباب، وبعد حياة قصيرة نسبيًا، مليئة بالاخفاق والفشل، عن وعي وغير وعي، يضعون حدًا للآلام المبرّحة التي تتولد من بحثهم عديم الجدوى، ومع الآسف، فإنهم يبلغون أسوأ أشكال اليأس، أعني به الانتحار.

ان جميع الشبان والشابات الذين يترددون على اعمال لاعقلانية مدمرة، ليسوا متشردين. انهم شبان، أولاد لله وأولادنا بآن معًا. بيد أنه سبق أن تحرّروا من الوهم في مجتمع مادي مكتف بذاته نسلّمه لهم، غير أنهم لا يكتشفون الهدف الذي من أجله خلقوا، ولا السبب الحقيقي والابدي الذي لم نسلّمهم اياه، وهكذا يبقون يجهلونه. هؤلاء الشباب يجهلون الهدف العظيم من حياة الانسان، أعني به

التأله. وعندما لا يجدون سلامًا في اي شيء، فإنك تراهم يلوذون باليأس، ومن خلال الاطر التي سبق ذكرها.

واليوم، انقاد كثيرون من رعاة كنيستنا المقدسة ورؤسائها وكهنتها وابائها الروحيين والاخوة العلمانيين، بمحبة غير أنانية، فقاموا يكرّسون نفوسهم كل يوم من اجل الارشاد الروحي يلقّنونه لشبّاننا، وذلك كي يصلوا بهم إلى التأله. ونحن نكنّ لهؤلاء الرعاة كل الاحترام والعرفان بالجميل، وذلك على تضحياتهم ومساهماتهم الجليلة في العمل المرضي لله، والذي به، وبنعمة الله، تخلص وتتقدس نفوس الذين مات المسيح من اجلهم.

وبكل تواضع، فإن جبل آثوس يساند الكنيسة ويدعمها في هذا النضال العظيم. وحديقة والدة الاله (جبل آثوس) هي مرتع فريد للقداسة والسلام في الله، فهي تنعم ببركات التأله، وتحيا في الشركة مع الله، وعندها الخبرة الاكيدة والكثيفة من نعمة الله ونوره.

واليكم لماذا ينتفع كثيرون من بني جنسنا، فيتشددون ويولدون في المسيح من جديد، بالحج إلى آثوس، وأغلب هولاء من الشبان. وكثيرون أيضًا يتشددون من خلال روابط وعلاقات يقيمونها مع الجبل. على هذا النحو، يتمتع هؤلاء بالحياة مع الله، في حياتهم، ويبدأ فهمهم لكل ما يمت بصلة الى الجهاد والحياة في المسيح، مع ما لهذه من فرح ومعنى تغذي بها حياتهم. بكلام آخر، يتذوق هؤلاء بعضًا من عطايا الله العظيمة للناس، أعني بها نعمة التأله.

دعونا الآن، رعاة الكنيسة، لاهوتيين ومعلمين، لا ننسى الارشاد الروحي الذي تقدّمه الكنيسة بقصد التأله، والذي به نتلقّى نحن والشباب البائسين معًا، وفي جهادنا اليومي من أجل التوبة والالتصاق بوصايا الله المقدسة، الامكانية كي ننعم ببركة الله هذه، ونتّحد به، فنفرح في الحياة الحاضرة، ونجني السرور الابدي والبركات.

دعونا نشكر الله القدوس، بلا انقطاع، على عطية التأله التي هي عطية حبه لنا. دعونا نستجيب لمحبته، بمحبة منا، فالله يريدنا أن نتأله، ويشاء ذلك. ناهيك، بعد ذلك، أن الله أصبح انسانًا من أجل هذا الهدف، ومات على الصليب، وذلك، كي يسطع في حياتنا، شمسًا بين الشموس، والهًا وسط الالهة.

كتب صدرت حتى الآن...

١ - اذهبوا بسلام (تعريب)
٢ - أقوال الآباء الشيوخ (تعريب)
٣ - تفسير القداس الالهي (تعريب)
٤ - اليقظة والصلاة (تعريب)
٥ - الحرب اللامنظورة (تعريب)
٦ - ٤٠٠ قول في المحبة للقديس مكسيموس المعترف (تعريب)
٧ - المقالة النسكية للقديس مكسيموس المعترف (تعريب)
٨ - الرجل والمرأة من المنظار الارثوذكسي (تأليف)
٩ - نعم أم لا للمناولة مع الطوائف الغربية (تأليف)
١٠ - هل يلغى العهد القديم (تأليف)
١١ - تجارب الرب على الجبل (تأليف)
١٢ - نعم أم لا لكهنوت المرأة؟ (تأليف)
١٣ - غاية الحياة هي التألّه (تعريب)